

صفحة من تاريخ العلاقات

بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبي

(٢٧ ذى الحجة ٥٦٩ هـ — ٢٨ يولية ١١٧٤ م)

الجناب الدكتور أومبرتو ريزيتانو Prof. Umberto Rizzitano

أستاذ بجامعة روما والأستاذ الزائر بجامعة فؤاد الأول

حضرات أصحاب العزة مدير الجامعة وعميد كلية الآداب

حضرات الأساتذة الأفاضل والطلبة الأعزاء

ربما كان القليل من حضرات السادة الذين شرفوني بحضورهم يقدرون المخرج الذى يقع فيه أى مستشرق يجرؤ على إلقاء محاضرة بلغة الضاد على أهلها لاسيما إذا كانوا من صفوة الأساتذة والمثقفين . ومن المعلوم أن المستشرقين إنما يتلقون دروسهم عادة على نصوص مكتوبة بالثر الفنى القديم الذى يختلف كثيراً أو قليلا عن النثر المعاصر وإذا كان أحد هؤلاء المستشرقين قد أتبع به أن يعيش مدة في بلد من البلاد العربية فلن يقدر إلا على التكلم باللغة العامية المستعملة في ذلك البلد ، ومن المعروف أنه لم تخرج العادة على أن يلقي إنسان محاضرة من المحاضرات باللغة العامية مهما كان شأنها ولهذا فإن المستشرق إذا تكلم فإما يتكلم بلغة ليست باللغة العامية وليست باللغة الفصحى المعاصرة التى تستعمل الصحافة اليومية والكتب العرب المعاصرون وإنما يستعمل لغة عجيبة نادرة المثال لها تراكيب ليست دارجة الاستعمال ويختار لها ألفاظاً ليست دائماً من الألفاظ الشائعة وهى تلك اللغة التى عرفها عن أمثال الأصفهاني

في كتاب الاغانى أو الحريرى في مقاماته المعروفة إلى غير ذلك، ويمكن القول بأن المسؤولية في ذلك تقع على كاهل الكتاب القدماء . وكما عبر أستاذنا الجليل أحمد أمين بك في بعض مقالاته عن جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى^(١) فإنه يمكن أن أقول إن هناك جناية أخرى (لا تقل خطراً عن الجناية التى أشار إليها الأستاذ الفاضل) فى استطاعتى أن أطلق عليها عبارة : جناية النشر الفنى العربى على المستشرقين عند ما يتحدثون باللغة الفصحى . ولأنى لا ذكر أن زميلاً لى من المستعربين قال لى فى العام الماضى فى مؤتمر المستشرقين المتعقد فى مدينة باريس على سبيل الفكاهة (إنا نحن المستشرقين الاوروبيين قد أوجدنا البحادثة لغة عربية أخرى من نسج اختراعنا وهى لغة صحيحة من الناحية اللغوية وتامة من الناحية النحوية ولكنها بعيدة كل البعد عن اللغة العربية الحية وهى تلك اللغة التى نود من صميم أنفسنا أن نعرفها حق المعرفة لكى نستطيع إلغاء محاضرات او كتابة مقالات بها .

ولقد كان من حسن حظى أن أكون من مواليد هذا البلد الكريم المضيايف وأن أرفع اللغة العربية مع لبن الأمومة فى وقت واحد ولهذا فأتى بفضل هذه الميزة واعتياداً على عظيم تساعكم وعفوكم أرجو ألا أقع فى تلك الأخطاء التى سبق أن أشرت إليها وأرجو أن أكون قد وفقت إلى استعمال لغة عربية تصل إلى أنهام السامعين ولى كلمة أيضاً أرجو أن تسمحوا لى بأن أقولها قبل أن ادخل فى الموضوع الذى سأحدث عنه وهى كلمة أريد أن أعرب بها عن اعترافى بحميل حضرات عميد وامانة كلية الآداب بجامعة فاروق الذين تفضلوا بأن شرفوني بالدماج لى بالقسم محاضرة فى هذه المدينة الخالدة التى اعتبرها مهدى الأول .

وبصفتى من مواليد هذه المدينة الكبيرة وكذلك كوني من اصل صقلى أجد أنه على واجب مزدوج وهو واجب المساعدة بقسود الإمكان على التقريب بين بلدنا أو بالأحرى بين شعبين إذا بحثنا بحثاً جدياً فى تاريخهما لوجدنا أنها قد تقابلا واتصلا عدة مرات ، وإذا بحثنا فى اخلاق وعادات كل منهما لوجدنا بينهما عيزات متشابهة ومشاركة

(١) راجع مجلة « الثقافة » سنة ١٩٣٩ عدد ١٩ و ٢١ و ٢٢ و ٣٠ و ٣٧ .

يحتمل كثيراً أن يكون سببها وجود كليهما على شواطئ البحر الأبيض المتوسط (١) الذي ليس هو فقط بحراً متوسطاً ، كما يدل على ذلك اسمه ، ولكنه بحر شامل جامع لكثير من الأمم التي تقطن هذه الأقطار المحيطة به وهو وسيلتهم الوحيدة في الاتصال والتبادل في مختلف نواحي الحياة ، ولقد كانت ، وما زالت ، للبحار في التاريخ أهمية كبرى وقد يكون من المفيد وضع تاريخ لكل بحر كما وضع تاريخ لكل بر فترى أية مساعدة ومعاونة قدمتها هذه البحار للبلاد المطلة عليها في التبادل الحضارى بتختلف نواحيه .

وفي الحق إنه كان للبحر الأبيض المتوسط في فترة من فترات التاريخ فضل الاتصال بين برين هما من ناحية أرض صقلية وسواحل إيطاليا الجنوبية ومن الناحية الأخرى بلاد أفريقيا الشمالية . ومن الممكن أن يعترض معترض بقوله : إن هذه الاتصالات لم تكن مقابلات ودية بل كانت مصادمات حربية ، وهذا حق لا يشكر ، إذ وقعت فعلا حروب وغزوات وإغارات من كل ناحية من هاتين الناحيتين على الأخرى ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الشعوب لا تتعارف فقط في ظلال العلاقات السلبية ولكنها قد تتعارف أيضاً ويتصل بعضها ببعض من خلال الحروب التي تقرب بين شعب وآخر ، وأظن أنكم قد سمعتم ذلك المثل العربي اللطيف الذي له مايمثله في اللغة الإيطالية (ليست هناك حبة بغير عداوة) ومثل ذلك أنه بالرغم من أن روجار الصقلي قد اعتبره مسلمو الجزيرة مغتصب الحكم منهم وأنه طردهم من بلاد كانوا قد فتحوها من نحو قرنين من الزمان فقد ازدهرت في أيام حكمه المدنية الإسلامية في صقلية أياماً ازدهار ونشاط كبيراً حركة علمية وافرة في ميادين الثقافة والشعر والفلك والجغرافيا والميادى السياسية ، وكل هذا كان بفضل المسلمين الذين كانوا بطبيعة الحال أعداء ألداء للتورمانديين .

ومهما يكن من أمر فلندخل في صميم الموضوع الذي جئت للتحدث فيه وذلك حرصاً منا على وقت سامعينا الأفاضل ولذا نقول إلى الحديث عن موقف جزيرة صقلية بعد موت روجار الثاني في ١١٥٤ م — ذلك الملك الذى كان فقده خسارة كبرى

(١) راجع ما أشار إليه في هذا الموضوع الدكتور طه حسين بك في مقدمة كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) مطبعة المعارف ١٩٣٩ .

للجزيرة لأنه كان بالنسبة لصقلية بمثابة الاسمنت من البناء لا يمكن البقاء بدونها . وقد حدث أن سقط البناء الشامخ الذي أقامه ذلك الملك العظيم الذي خلغ عليه الادريسي أوصافاً عظيمة في كتابه المعروف (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) اذ سرعان ما سارت بعد موته في داخل الجزيرة حركات التمرد من جانب خصومه فقد حدث هذا في عهد غليالم الاول حينما كانت الفرصة سانحة لخلق الاضطراب وتكدير عيش الملك الجديد المعروف باسم جوليالم الشق ولم يكن هذا خصب بل إن الموقف في خارج الجزيرة لم يكن موقفاً طيباً فقد كان ألبانيا ينتظر أحسن الفرص لاجتياح ايطاليا الجنوبية واختناعها . وكذلك كان فردريك بارباروسا (ذو اللحية الحمراء) يصوب الى تلك هذه الاقاليم وللوصول الى هذا الغرض استعان بقوات ييزا وجنوا البحرية ، ولكنه لم يصل الى بغيته ومن الجهة الاخرى كان البيزنطيون يعدون العدة لمهاجمة أقليم بوليا الواقع في ايطاليا الجنوبية وكذلك كان الموحدون أثناء ذلك قد اشتد ساعدهم وتغلغوا الى استعداد ما كان قد تملكه روجار الاول واخوه روجار الثاني من بلاد افريقيا . وإنما إذا الفينا نظرة على خريطة البحر الابيض المتوسط لا يمكننا ان نتصور موقف جزيرة صقلية وان نشمر بان الملك النورماندى كان في غاية الحرج والصعوبة لأنها أصبحت اذ ذاك منعزلة وعاطلة بأعداد من كل الجهات وقد أدرك غليالم الاول حقيقة الموقف وهذا ما تفهمه بسهولة من أنه في بحر الاثنى عشرة سنة الى حكمها بصقلية لم يحاول القيام بحركات خارج الجزيرة إلا مرات قليلة جداً وإذا ما استثنينا بعض غزوات بسيطة قام بها بعد موت روجار مباشرة كان القصد منها مهاجمة تنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية ولكنها على كل حال كانت غزوات بسيطة واغارات ليس ذات أهمية ولذلك لم يعلق عليها احد من المؤرخين المعاصرين لها او الذين جاؤا بعدها ثم إنه كانت قد بدأت تعلو في البحر الابيض المتوسط ولا سيما في الجانب الغربى منه وعلى الشواطىء الافريقية صبيحة الثورة على المسيحيين ، تلك الصبيحة التي كان اول من اطلقها في تلك الفترة عمر بن ابي الحسن الحسين الفرياني الذي يمكننا ان نعتبره محرر مدبنة صفاقس وعلى اثره ثارت على الحكام الجدد مدينة جربة وعلى اثرهما طرابلس الغرب وقابس وبعدها ذلك المهديبة التي خرجت من يد المسيحيين في سنة ١١٦٠ م بعد اثنى عشرة سنة من احتلال النورماندين لها .

وعندما توفي والد غليالم الأول في سنة ١١٦٦ لم يكن ابنه قد تجاوز الثالثة عشرة ولذلك عين مجلس وصاية لإدارة البلاد استمر في مباشرة عمله خمس سنوات كاملة بدأ بعدها غليالم الثاني - ولم يزل في سن الشباب - حياته كملك وكان يعيش في أثناء هذه الفترة في قصوره العديدة القائمة في بالرمو بين النساء والجواري عيشة الملوك الشرقيين، وهذه المناسبة يحسن أن نقرأ ذلك الوصف الشائق الذي تركه لنا ابن جبير في «رحلة الكنتاني»، إذ يقول: «... وهو كثير الانتحاذ للفتيان والجواري وليس في الملوك النصارى أترف في المأك ولا أنعم ولا أرفه منه وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أهبة الملك وإظهار زينتته بملوك المسلمين ...» (١)

ومع ذلك فإن التاريخ عرفه باسم غليالم الصالح بينما كان يطلق على أبيه اسم غليالم الشقي، ومن المحتمل كثيراً أن لا يكون الأب شقياً والابن صالحاً إلى درجة يستحقان معها هذين اللقبين ولكن هذا بدلنا على أن كل شيء في هذه الدنيا لا يحكم عليه حكماً صحيحاً وغالباً ما يتخلع التاريخ على مشاهير الرجال أوصافاً لا يستحقونها وينسب لهم أعمالاً لم يعملوها.

كان أمام غليالم الصالح في أثناء حكمه أن يختار أحد الطريقتين: إما الطريق الذي كان يسير عليه جده وجد أبيه روجار الأول وروجار الثاني اللذين كرّسا كل جهودهما لإيجاد ممتلكات خارج الجزيرة (٢) أو أن يسير سير أبيه غليالم الأول الذي بسبب حزمه لم يحاول التوسع في خارج الجزيرة واقتصر على العمل على تحسين الأحوال في صقلية في جميع فروع الحياة، وأمام هذين السبيلين رأى غليالم الصالح اختيار الطريق الأول وهو طريق التوسع والفتح في السواحل الأفريقية التي كان الجانب الغربي منها مسرحاً لنشاط الصليبيين، وهذه المناسبة يقول آماري بحق في كتابه «تاريخ مسلي صقلية» الذي نود أن نراه منقولاً إلى اللغة العربية في أقرب وقت، إن غليالم قد

(١) المكتبة العربية الصقلية، طبعة ١٨٥٧ - ص ٨٣.

(٢) راجع مقالتي في عدد يونيو ١٩٤٩ Bulletin of Faculty of Arts جامعة قزوين الأولى.

تسبب في فقد أرواح وإضاعة أموال تزيد كثيراً عما استهلكه أجداؤه في
فقرحاتهم ، (١)

والآن وقد بحثنا الموقف في جزيرة صقلية فلنتنقل الى وصف الحالة في مصر في ذلك
الحين لكي نعيث اللثام عن حقيقة المشروع الذي قام به غليالم الثاني لمهاجمة الاسكندرية
في ذي الحجة سنة ٥٦٩ هـ (الموافق ٢٨ يولييه سنة ١١٧٤ م) لنستعيد ذكر الحوادث
والرجال الذين تميزت بهم هذه الفترة التي لم يكن موقف صلاح الدين الايوبي فيها
أفضل من موقف غليالم الثاني في صقلية . وذلك لأن السلطان الايوبي على مثال الملك
النورماندي كان محاطاً بعدد من الاعداء سواء في داخل البلاد أو في خارجها وقد
تحدث هو نفسه عنهم في رسالة له بعث بها إلى ديوان الخلافة في بغداد وفي هذه الرسالة
التي نقرأها في كتاب الروضتين ، لآبي شامة المقدسي قال السلطان الايوبي :

... فاما الاعداء المحدقون بهذه البلاد والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام
والعزائم الشداد فبهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الاكبر والجالوت الاكفر
وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت وقائم النصرانية الذي حكمت دولته
على ممالكها وغابت ... ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية كان حين علم بأن
صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فظنوا وقبرا وهزما
وكسرا أراد ان يظهر قوته المستقلة فعمر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه فله الآن
خمسة مئة من يسكر عدته ويبتخب عدته إلى ان وصل منها في السنة الحالية إلى
الاسكندرية ... ، (٢) أما في داخل البلاد فكان صلاح الدين الايوبي يعمل على إعادة
الشعب المصري إلى سيطرة الخلفاء العباسيين الذين كانت قد خرجت مصر من أيديهم
من نحو قرنين وبدأ صلاح الدين يظهر لأهالي الديار المصرية وغير المصرية كبطل من كبار
الابطال ولكن هناك من كان يعمل على إعادة الفاطميين وقد حدث في ذلك الوقت أيضاً
ما سبق ان حدث قبل نحو قرن من الزمان بفعل الشاعر المؤيد في الدين هبة الله

(١) تاريخ مسلمي صقلية طبعة ١٩٣٢/١٩٣٩ — ج ٣ ص ٥٤٠ — ٥٤٣ حيث أماري يبدى
رأيه فيما يخص بسلوك غليالم الثاني .

(٢) المكتبة العربية الصقلية — ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

الشيرازي (الذي نشر ديوانه أخيراً الاستاذ الجليل محمد كامل حسين) وقام في أيام صلاح الدين بالحركة نفسها شاعر آخر أجنبي عن مصر كان من أهالي اليمن وهذا الشاعر الذي اخذ بيده زمام الحركة هو عمارة بن أبي الحسن ذلك الشيعي اليمني المتطرف الذي حدثنا عنه حديثاً مستفيضاً المستشرق Derenbourg .

وقد بذل المتآمرون على صلاح الدين كل جهودهم لكي يصلوا إلى غايتهم ولم يترددوا في الاستعانة بملكي صقلية والقدس المسيحيين . وفي نفس الوقت عملوا على إبعاد توران شاه شقيق صلاح الدين من مصر وحسنوا له أن يتولى قيادة الحملة على بلاد اليمن وكان ممن يشجع على هذه الحملة الشاعر عمارة نفسه . ومع ذلك فإن هذه الحملة لم تكن عديمة الفائدة إذ أن الأيوبيين اكتسبوا بها فتوحات عظيمة . وكان المتآمرون في داخل البلاد على صلاح الدين قد وضعوا برنامجاً يتلخص فيما يأتي :

حينما يغيب صلاح الدين عن القاهرة ليرد المسيحيين الذين ينزلون من سفنهم إلى الأراضي المصرية يقوم المتآمرون باثارة الشعب ضده وخلعه وإعادة الملوك الفاطميين . أما إذا فضل صلاح الدين البقاء في القاهرة ورأى إرسال جنوده لمحاربة العدو فعندئذ يسهل على المتآمرين القبض عليه .

ولكن صلاح الدين كان رجلاً ذكياً ماهراً وكان الحظ يساعده . فن جهة تقدم اليه زين الدين على بن ناجه أحد الوعاظ الذي عرف بالمؤامرة وأظهر بالاشتراك فيها وبقي بين المتآمرين لينقل أخبارهم إلى صلاح الدين ومن جهة أخرى استعان صلاح الدين بمسيحي كان يثق به كل الثقة واستطاع هذا أن يقدم له أسماء المتآمرين . وهكذا نجح مسلمان ومسيحي من المحتمل كثيراً أن يكونا قد عملا بإرشاد ورماية « القاضي الفاضل » الذي نسب اليه « أبو الفداء » فضل كشف هذه المؤامرة وهذا رغم اختلاف ديانتها . إذ كان أحدهما من المسلمين والآخر من المسيحيين وكان كل من هؤلاء هؤلاء يتقاتلون براً وبحراً ولكنهم

كانوا في كثير من الأحوال سواء في صقلية أو أفريقية أو مصر أو الأندلس
يتعاونون ويتآمرون ويعملون جنباً إلى جنب وكان تعاونهما في هذه المرة لمعاونة
صلاح الدين .

اكتشفت عندئذ المؤامرة وحكم على مدبريها بالموت كما روى ذلك ابن
الاثير وكان يبدو بعد موت هؤلاء المتآمرين أن كل شيء قد انتهى . وبالفعل
رأى ملك القدس الانحجاب والعدول عن مهاجمة الاسكندرية . ولكن ملك
صقلية غليالم الصالح رأى لاستمرار في حملته . وفي اليوم السابع والعشرين من
ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ (الموافق لثمان والعشرين من يولية سنة ١١٧٤ م)
ظهر الأسطول الصقلي أمام شواطئ الاسكندرية وكان يتألف من عدد ضخم
من السفن وهذا ما أجمع عليه كل المؤرخين مع خلاف بسيط في تحديد التاريخ^(١)
وفي عدد سفن الأسطول ولكن هذا الخلاف ليست له أهمية كبيرة إذ أن الذي يهمنا
معرفة هو أن غليالم رغم فشل المؤامرة ورغم القبض على المتآمرين قام بمشروعه
مدفوعاً برغبته في الحصول على المجد والثروة إذ أن المتآمرين كانوا قد زينوا له
المشروع ووعدوه بالحصول على أموال كثيرة وأراض واسعة .

وفي الوقت نفسه راحنا كل الدهشة السلطان صلاح الدين الذي كان غاية
في الحرص والبراعة لم يظفر بملك صقلية أن المؤامرة قد فشلت وهذا يجعلنا
نعتقد أن الملك الايطالي لم يكن يخشى ملك صقلية وكان واثقاً من أن في استطاعته
التقاؤه في البحر كما حدث فعلاً

وبعد سنين قليلات نجد أن نموذ الأيوبيين قد أنبسط على مسلمي الجزيرة إذ
نقرأ في كتاب رحلة ابن جبير - الذي زار صقلية سنة ٥٧٨ هـ (الموافق ١١٨٣ م)
أن خطبة الجمعة كان يدعى فيها في مساجد مدينة بالرمو للخليفة العباسي .^(٢)

(١) راجع في هذا الموضوع « تاريخ مسلم صقلية » - ج ٣ ص ٥٢٢ الخاشية .

(٢) المكتبة العربية العقلية - ص ٩٢ .

من هذا يتضح أن سيرة صلاح الدين أصبحت أشبه بالأساطير ودخلت في
عدادها بعد الفترة التي عاش فيها . فمن هذه اللحظة كانت حركاته بطل
من الأبطال يثير الحماسة في صفوف جيوشه ، ويلقى الرعب في قلوب خصومه
واعدائه . وبقية الحوادث معلوم أمرها اذ اضطرت السفن المغيرة بعد ثلاثة
أيام من قتال عنيف الى العودة من حيث أتت . وأن موجز هذه الحوادث التي
يمكن اعتبارها صفحة من منجزات المجد التي سطرها صلاح الدين في مصر
يدلنا على أمرين :

أولاً — نصيب الشعراء في تدبير المؤامرات والحركات التي كان الغرض منها
إحداث الانقلابات السياسية .

ثانياً — مقدار الدعاية الفاطمية العظيمة التي كانت تنتشر في مصر وكيف كان
الفاطيون يستعملون الوسائل في سبيل انتصار قضيتهم ولواضطرم
الامر إلى طلب مساعدة المسيحيين دون تقدير لما يحجر ذلك من الأخطار .

وان محاضرتي هذه تكون عديمة الفائدة اذا لم أشر فيها قبل ان
أختتمها الى أمرين لهما عندى أهمية خاصة ولا بد أن يهتم بهما جميع الذين يشرفون
هذه القاعة .

الامر الأول هو اننى أريد ان أنبه حضرات الحاضرين لكى ينهزم
بدورهم ايضاً طلبتهم وزملاءهم إلى أهمية العناية بدراسة تاريخ مسلمي
صقلية التي فتحت لنا المؤرخ آمارى الطريق اليها . ويجب ألا تكون هذه الدراسة
مقصورة على الجانب التاريخي المحض الذي نعرفه جيد المعرفة وخاصة بعد نشر
تلك النصوص التي احتواها المجلدان الضخمان المعروفان باسم « الذكري المئوية
لميكيلى آمارى » بل يجب أن تتعدى ذلك إلى الاهتمام بتاريخ الحركة الادبية
والعلمية والثقافية والادارية التي نمت وترعرعت في الجزيرة في اثناء الوقت

الطويل الذي عاش فيه المسلمون في الجزيرة حتى بعد الفتح الثورماندي ، واني أتتهز هذه الفرصة للإشارة الى امر هام وهو أنه إلى اليوم لاتزال دواوين الشعراء : ابن حديس وعلى البلنوبي (١) وابن قلاؤس وغيرهم من امثال ابن بشرون وعبد الرحمن الاطرابنشي وعبد الرحمن بن محمد بن عمر الذين عاشوا في البلاط الصفلي او الذين زاروا الجزيرة . تكاد تكون مجسولة . وان كن من وصلت الى يديه دواوين الشعراء الثلاثة الاولين او بعض قصائد الآخرين وأسانيهم المشتتة في بعض المؤلفات وبصفة خاصة في الخزينة ، امعاد الذين الاصفهاني يمكنهم بكل سهولة ان يلاحظوا أن معرفة مثل هذه الثروة الشعرية أمر ضروري لإكمال أو تصحيح بعض الروايات التاريخية الخاصة بغزوات مملوكي صفليه ونحو ذلك واننا بعد ان نرجع الى هذه الدواوين والاشعار يمكننا ان نقول اننا قد قمنا بعمل مجيد لتوضيح كل مظاهر الفتح الاسلامي لجزيرة صفلية .

والامر الثاني الذي ارغب الإشارة اليه — بصفة خاصة — والذي استطع الانتهاء من محاضرتي بعد الفراغ منه هو ان ادعو الطلبة الى عدم إهمال ذلك العنصر الهام الذي هو جزء لا يتجزأ من التاريخ، والمعروف باسم Epigrephy أي الكتابات المنقوشة .

والتقوش العربية لاتزال آثارها باقية في كافة البلاد التي فتحها المسلمون ، وهي نقوش مكتوبة باللغة العربية التي يقول عنها بحق Van Berchem في مؤلفه القيم

“Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum”

«إنها لم تعد بعد لغة عامية لقيمة من القبائل بل إنما أصبحت لغة علمية وضعتها وظيفتها التاريخية من بعد وفاة النبي محمد إلى أيامنا هذه في الصف الأول بين طرق التعبير التي عرفت في الإنسانية .

وهذا هو السبب الذي من أجله توجد نقوش عربية في مناطق تمتد من المحيط

(١) وقد أعد المأسوف عليه المستشرق C. Schiaparelli نشر هذا الديوان وترجمته الى الإيطالية ولم يطبع بعد .

الهندي حتى سواحل المحيط الأطلسي ومن داخل البلاد المصرية حتى بلاد آسيا الوسطى ،
وحتى بلاد الصين نفسها لم تخل من هذه النقوش العربية . (١)

وان النقوش كما قال حضرة عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول عند ما تحدث
أخيراً عن (الآثار فى خدمة التاريخ) لتودى خدمة نفيسة لفقه اللغة وللتاريخ قبل
كل شئ . وهذه النقوش تلقى ضوءاً فى أغلب الأحيان على النظم الدينية والسياسية والادارية
والقضائية والعسكرية والتجارية وعلى تاريخ الأزياء والآراء وعلى الثبت من أسماء
الاعلام والالقباب الرسمية التى أوجدها الحكام . وإنه ولو أن نصيب النقوش العربية
فى هذه الميادين أقل من نصيب النقوش اليونانية واللاتينية إلا أن قيمتها لا تنسك . وإلى
جانب الاهتمام بالنقوش يجب الاهتمام بدراسة علم المسكوكات والوثائق وعلى الأخص
ما كان منها متصلاً بالعلاقات بين أوروبا وبلاد الشرق العربى عامة وخاصة بين بيزا
وفلورنسه وجنوه وصفلية وغيرها مع مصر وتونس وبلاد الشام من القرن الثانى
عشر إلى القرن السادس عشر .

وقد أدرك ما لهذه الوثائق من قيمة جماعة من الباحثين أمثال Van Berchem
و Cusa و Nallino و Sauvairo و Lavoix و Amari وغيرهم الذين تركوا بين أيدينا
نشرات وتعليقات لها قيمتها العلمية العظيمة التى يجب ألا نتجاهلها والتى ندعو الشبيبة
المصرية إلى دراستها ومعرفتها حق المعرفة .

هذا هو أهم ما كان على أن أقوله وإنى لأراه أهم بكثير من تفاصيل الحوادث
التاريخية التى أشرت إليها فيما سبق . . . وإنى لأرجو فى الختام ألا أكون قد أمليت
حضراتكم بحدوثى "طويل وبلغى" فى ربما تكون قد جعلتكم تشعرون بالاشفاق على
لغنتكم العربية الجميلة بعد أن سمعتموها منى ؟

(١) باريس سنة ١٨٩٤ — من ١ و ٢ من المقدمة .